

## أوروبا والإسلام: مملكة الكاهن يوحنا (الحقيقة - الأسطورة - المغزى)

### ■ حاتم الطحاوي

احتوى الفكر السياسي الغربي في العصر الوسيط على العديد من الأساطير المؤسّسة لمشروعاته الاستعمارية في الشرق العربي والإسلامي. نعرض هنا إحدى تلك الأساطير التي رُوِّج لها، واعتمدت عليها السياسة الكنسية في أوروبا الوسيطة من أجل غزو الشرق واستغلال ثرواته، بزعم التبشير بالمسيحية وحماية مسيحيي الشرق البعيد. فضلاً عن حصار المشروع الإسلامي (الأيوبي / المملوكي) عبر التحالف الذي عملت البابوية على تحقيقه مع المغول، ومن ثمّ التقدّم عسكرياً لاحتلال منطقة الشرق العربي والإسلامي.

اختلقت الذهنية الأوروبية الحاكمة منذ القرن الثاني عشر الميلادي فكرة وجود مملكة تدين بالمسيحية في أقصى الشرق، يرأسها قسّ مسيحيّ يُدعى Prester John، يعيش بشعبه وسط شعوب وثنية وإسلامية معادية للربّ؛ لذا توجب تقديم يد المساعدة له ولشعبه لمحاربة أعداء المسيحية، مع نسج أقاويل عن قوته العسكرية المزعومة التي سوف يتمّ الاستفادة منها أيضاً عن طريق تقدمه غرباً لنجدة الصليبيين في بلاد الشام ومصر.

■ باحث وأكاديمي من مصر.



وزعمت الكنيسة الكاثوليكية وجود ذلك الكاهن المسيحي، الذي ينتظر بفارغ الصبر مساعدة عسكرية من الغرب لمحاربة أعداء الرب، وهو الأمر الذي تمّ توظيفه بالفعل في الدعاية الصليبية، عبر إثارة حماسة الجنود الصليبيين المتجهين لقتال المسلمين في الشرق العربي.

وربما بدأ تشكُّل تلك الأسطورة منذ بدايات القرن الثاني عشر الميلادي، خاصة بُعيد الزيارة التي قام بها أحد رجال الدين المسيحيين من الهند إلى روما عام 1122م، وأسهب في سرد معجزات القديس توما بها، وهو ما رسَّخ اعتقاداً لدى مستمعيه من الرهبان الكاثوليك بأن توما ربما كان هو الأب يوحنا حاكم الهند الذي تناثرت الروايات حوله.

وإذا ما أردنا مناقشة ذلك الطرح يجب علينا التذكير أن المسيحية كانت قد انتشرت بالهند منذ وقت مبكر، والدليل على ذلك حديث المؤرخ الكنسي يوسابيوس Eusebius في القرن الرابع الميلادي عن إرسال مبشرين للهند منذ القرون الأولى للمسيحية. الأمر الذي جعل كنيسة تشارك في مؤتمر نيقية الأول عام 325م، الذي انعقد تحت رعاية الإمبراطور قسطنطين العظيم، عبر ممثلها الأسقف يوحنا الفارسي بصفته راعي كنائس بلاد فارس والهند. ويجرنا ما سبق إلى الحديث عن انتشار المسيحية في جنوبي الهند بفضل وصول العديد من المسيحيين السريان الذين قاموا بنشر المسيحية وسط السكان المحليين. ولم يكتفوا بذلك بل استوطنوا تلك الأماكن وبرعوا أيضاً في تجارة التوابل.

وحدث بعد ذلك أن أشار المؤرخ الكنسي الألماني أوتوفون فريزي Otto Von Freising (1114 - 1158م) في حويلته إلى مقابله لمطران مدينة جبلة الشامية في مدينة فيتوريو Vittorio الإيطالية حيث حدّثه الأخير عن انتصار قس مسيحي نسطوري على المسلمين في معركة مهمة وقعت بالقرب من مدينة سمرقند في آسيا الوسطي، وأنه ينوي أن يزحف لتقديم يد المساعدة للصليبيين في بلاد الشام.

ونظراً لاحتراف مؤرخنا الألماني بالأخبار التي أشارت إلى القس يوحنا

وعزمه على محاربة المسلمين؛ فإنه لم يدخل في تفاصيلها، ولم يحدد لنا مصداقيتها. غير أنه باستنطاق المصادر التاريخية الموازية يمكن الحديث عن معركة انتصر فيها إمبراطور (القره خطاي) (يه لو تاشي) Yih Lu Tashi على السلطان السلجوقي سنجر (1096 - 1157م)، وهي التي عُرفت باسم معركة بادية قطوان القريبة من سمرقند في عام 1141م.

على أننا نعلم أن (يه لو تاشي) - الذي انحدر من أسرة لياو الملكية بالصين - لم يكن مسيحياً، على الرغم من وجود العديد من المسيحيين النساطرة في حاشيته وبلاطه قبل أن يفرّ من الصين إلى آسيا الصغرى تحت ضغط أسرة تشين في شمالي الصين.

**علينا التذكير أن  
المسيحية كانت قد  
انتشرت بالهند منذ وقت  
مبكر، والدليل على ذلك  
حديث المؤرخ الكنسي  
يوسابيوس Eusebius في  
القرن الرابع الميلادي عن  
إرسال مبشرين للهند منذ  
القرون الأولى للمسيحية.**

وفي عام 1165م - أي بعد ربع قرن من معركة قطوان - تواترت الأخبار عن رسالة حملها مبعوث القس يوحنا إلى الإمبراطور البيزنطي حنّا كومنينوس John Comnenus (1143 - 1185م) - عدو السلاجقة المسلمين - حدّثه فيها عن بلاده وموقعها وخيراتها وثروتها، وما تمتلكه من الجواهر الثمينة والذهب والفضة، وعن اتساع مساحتها، وهو ما يستلزم أربعة أشهر لعبورها. وختم الكاهن يوحنا رسالته للإمبراطور بكلماته التي تتيه فخراً:

«إذا ما استطعت إحصاء النجوم في السماء وعدّ حَبّات الرمال على الأرض، عندها فقط يمكنك أن تدرك مقدار تأثيرنا وقوتنا».

وعلى الرغم من وجود هذه الرسالة ضمن الوثائق المنسوبة إلى الخطابات القادمة من الشرق في العصر الوسيط؛ فإن الرأي الغالب عند المتخصصين يقضي بعدم صحتها، وأغلب الظن أنه جرى تدبيجها في ألمانيا آنذاك.

على أيّة حال، فعلى الرغم من عدم ظهور الكاهن يوحنا على مسرح الأحداث؛ استمر المخيال الأوروبي اللاتيني بعد ذلك في تغذية وجود هذه



المملكة المسيحية، كما انشغل بضخ دماء جديدة في هذه الفكرة التي ابتدعها لتبقى مبرراً لأحلامه ومشروعاته المستقبلية في التوسع شرقاً، وهو ما تجلّى عبر البحث عن «كاهن يوحنا جديد»؛ ليجعل الفكرة تمتد بعد ذلك حتى تجد ضالتها في القائد التركي طغرل خان Tughrul Khan زعيم الأتراك الكيرانيين، الذين كانوا يدينون بالمسيحية على المذهب النسطوري منذ أوائل القرن الحادي عشر الميلادي.

ومن جديد يتمّ استدعاء فكرة زحف الكاهن يوحنا بجحافلهم لمساندة الصليبيين المحاصرين في ميناء دمياط المصري إبان أحداث الحملة الصليبية الخامسة 1221م، حين يشير رجل الدين الكاثوليكي أوليفر فون البادربروني Oliver von Paderborn (1170 - 1227م) - وهو أهم مؤرخي تلك الحملة - إلى أن الصليبيين تلقوا أخباراً تشير إلى أن الملك داود - ابن الكاهن يوحنا - سوف يتقدّم من الشرق لإنقاذ الصليبيين في مصر.

ويبدو أن الصليبيين قد صدّقوا ذلك بالفعل؛ لأنهم رفضوا - بواسطة المندوب البابوي بيلاجيوس Pelagius، وبطريك بيت المقدس - العرض السخيّ الذي قدّمه لهم الملك الكامل الأيوبي بأن يعودوا أدراجهم عن مصر مقابل تسليمهم مدينة بيت المقدس.

كذلك الأمر، فقد تكررت الإشارة إلى الملك داود بوصفه ملك الهند، في الخطاب الذي أرسله أسقف مدينة عكا، الأب جيمس الفيتري Vitry James of إلى البابا الكاثوليكي هونوريوس الثالث Honorius III (1216 - 1227م).

وبشكلٍ عامٍ كانت الذهنية الأوروبية - في ابتداعها لشخصية الكاهن يوحنا ودوره التاريخي - تعتقد - وهي تفتش عنه في الشرق - أن كل من يجارِب المسلمين وينتصر عليهم هناك هو بالضرورة شخصٌ مسيحيٌّ يؤمن بالربّ. وهكذا انتقلت الأسطورة من جديد لتحتّ هذه المرة على الزعيم المغولي الكبير جنكيز خان Genghis Khan (1165 - 1227م) بعد قيامه بالتوغّل في أراضي المسلمين ونجاحه في الاستيلاء على أراضي الخوارزميين أعوام 1219 - 1223م، بعدما وصفته بأنه الملك داود. ومن الطبيعي أن نستنتج أن

ذلك قد حدث استغلالاً للروايات المتواترة حول مسيحية جنكيز خان بفضل وجود حاشيته المؤلف معظمها من النساطرة.

بعد ذلك قام البابا الكاثوليكي إنوسنت الرابع (Innocent IV) (1195 - 1254م) بإرسال المبشر الفرنسيسكاني جون بيانو كاربيني J.P. Carpini إلى المغول بُعيد الانتهاء من مؤتمر ليون 1245م. والحقيقة أن تقرير الأخير عن الحياة السياسية والاجتماعية والدينية عند المغول كان مشوقاً، غير أن ما يهمنا هنا أيضاً أنه أشار إلى انتصار جنكيز خان على المسلمين الخوارزميين سكان الهند الصغرى (أفغانستان الحالية) وليس الأثيوبيين كما ورد في

**بشكل عام كانت الذهنية الأوروبية - في ابتداعها لشخصية الكاهن يوحنا ودوره التاريخي - تعتقد - وهي تفتش عنه في الشرق - أن كل من يحارب المسلمين وينتصر عليهم هناك هو بالضرورة شخص مسيحي يؤمن بالرب.**

الكتاب. على الرغم من الخلط الدائم بين الأبحاش والهنود طوال العصور الوسطى. ليس هذا فقط؛ بل أشار كاربيني إلى محاولة جنكيز خان غزو الهند الكبرى، غير أن حاكمها - الكاهن يوحنا - تمكن من هزيمته مستعيناً «بجنود من نحاس على سهوات الجياد، يستخدمون أيضاً النار الإغريقية».

وبعد ذلك بسنوات قليلة حين حاول الملك الفرنسي لويس التاسع (Louis IX) (1214 - 1270م) تضيق الخناق على المسلمين في الشرق العربي

عبر عقد تحالف مع المغول منذ عام 1248م تحت رعاية الكنيسة الكاثوليكية؛ أرسل سفارة لبلاد التتار عادت خاوية الوفاض بسبب تطلع العاهل المغولي لزعامة هذا الحلف. غير أن ما يهمنا هنا أن الرسل الفرنسيين استمعوا من المغول إلى أحاديث تذكر أنهم كانوا في البداية يخضعون ويدفعون الجزية للكاهن يوحنا حاكم فارس، الذي كان هو وجنوده ينزلونهم منزلةً دنيا، وهو ما دفع بالتتار إلى الخروج عليهم، وإخضاع بلادهم.

أما المبعوث الفرنسيسكاني الآخر وليم الروبروكي William of Rubruck (1220 - 1293م) - الذي أرسله لويس التاسع لبلاد المغول 1253 - 1255م -



فقد أشار في تقريره المثير أيضاً إلى حاكمٍ مسيحيٍ نسطوري يُدعى القس يوحنا، كان حاكماً على طائفة مغولية تُدعى النايمايين. غير أنه عاد ليذكر أنه يعتقد بأن الحديث عنه كان مبالغاً فيه بشكلٍ كبير. ثم عاد ليشير إلى أنه بعد وفاة يوحنا خلفه أخوه أونك الذي ارتدَّ عن المسيحية إلى البوذية.

ومن الواضح أن ما سبق ذكره هو إشارة إلى الحاكم التركي/ المنغولي كوتلوغ الذي سبق أن هجر المسيحية النسطورية إلى البوذية، وقام بالفرار من مواجهة جنكيز خان نحو أراضي القره خطاي ليستولي عليها بعد زواجه من ابنة حاكمها. وكان كوتلوغ يرى ضرورة تحويل جميع السكان المسلمين إلى البوذية أو المسيحية. وهكذا خصَّ المسلمين بحملات عسكرية متكررة لتحقيق هدفه، لم ينقذهم منها سوى إرسال جنكيز خان لحملة استعادت أراضي قره خطاي من جديد في عام 1218م.

وفيما بعد حمل الرحالة الأوروبي الأشهر ماركو بولو Marco Polo (1254 - 1324م) أسطورة بلاد الأب يوحنا إلى أفاق بعيدة، وذلك عند حديثه عن أصل المغول الذين تبعوا الخان «أون»، فأشار إليه بأنه ربما كان هو القس يوحنا. كما تعرّض أيضاً للحديث عن ولاية تندوك؛ حيث زعم أن الأسرة الحاكمة بها ترجع إلى الخان المغولي «جورج»، الذي ينحدر بدوره من سلالة الأب يوحنا.

ولكي يجعل بولو الأسطورة تبدو منطقية، ذكر أن جورج كان قساً مسيحياً، مستنداً إلى أن غالبية سكان تندوك يدينون بالمسيحية، إلى جوار أقلية مسلمة وأخرى وثنية. كما أشار بولو إلى شهرة تلك البلاد بالمنسوجات ووبر الجمال، فضلاً عن الأحجار الكريمة.

والحقيقة أننا نعرف أن العديد من السكان السلاجقة المسلمين قد عاشوا في إقليم كاشغر، ومنه انتشروا إلى بلاد المغول حيث مارسوا النشاط التجاري، قبل أن يتحولوا إلى مرحلة الاستيطان ليشغلوا الوظائف الرسمية في الجيش والقضاء.

واستمرت الكتابات الأوروبية في القرن الرابع عشر الميلادي في تداول الأخبار المتعلقة بمملكة القس يوحنا في الشرق الأقصى، مثلما ورد في رحلة الراهب الفرنسيسكاني أيضاً أودوريك البوردينوني Odoric of Pordenone (1265 - 1331م) إلى الصين 1330م.

على أنه منذ منتصف القرن الرابع عشر الميلادي حدث تحوّل واضح في مسار الأسطورة؛ حيث ظهرت كتابات أوروبية تتحدّث عن وجود بلاد الأب يوحنا في الحبشة Ethiopia، بفضل ما ذكره جون المارينولي John De' Marignolli، المبعوث من قبل البابا الكاثوليكي بندكت الحادي عشر Benedict XI إلى خانات المغول (1330 - 1340م).

**استمرت الكتابات الأوروبية في القرن الرابع عشر الميلادي في تداول الأخبار المتعلقة بمملكة القس يوحنا في الشرق الأقصى، مثلما ورد في رحلة الراهب الفرنسيسكاني أيضاً أودوريك البوردينوني إلى الصين 1330م.**

وفي ظل استمرار الذهنية الأوروبية في رعاية وجود أسطورة بلاد الأب يوحنا؛ عاودت روايات القرن الخامس عشر الميلادي الإشارة إلى وجودها بالهند البعيدة؛ من ذلك ما أورده الرحالة الإسباني الشهير بدرو طافور Pedro Tafur (1410 - 1484م) الذي زار إيطاليا والقسطنطينية وبلاد العثمانيين والشام ومصر خلال الأعوام 1435 - 1439م، الذي كشف عن مكنون رغبته في التوجه إلى الهند لمشاهدة الأب يوحنا، وأشار إلى مقابله عام 1436م في الأماكن المسيحية

المقدسة بجبل سيناء للرحالة البندقي نيقولو كونتي Niccolo de Conti (1395 - 1469م) الذي يُعدّ الإيطالي الثاني الذي وصل إلى الصين بعد ماركو بولو، وكان دو كونتي قد سافر كمسلم إلى الشرق الأقصى على متن سفن التجار المسلمين، وأخبره دو كونتي - الذي كان للتوّ عائداً من الهند - أنه بمجرد وصوله إليها تمّ استدعاؤه لمقابلة القس يوحنا الذي قام بالترحيب به، بل وتوفير زوجة له أيضاً. كما أخبر طافور أيضاً أن بطريك الكنيسة المصرية هو الذي يرسل لكنيسة الهند - حيث بلاد القس يوحنا - بالبطريك المسؤول عن الكنيسة فيها.



ونلاحظ من جديد هنا التشوّش الذي لحق باسم الهند في الحوليات الأوروبية في العصر الوسيط؛ لأنه من الواضح من سياق حديث نيقولو دو كونتي أنه قصد بلاد الحبشة التي تتبع الكنيسة المصرية، والتي ظلت تعين بطريركاً لكنيسة الحبشة طوال العصر الوسيط.

والمثير في الأمر أن أسطورة بلاد الأب يوحنا لم تتردد فقط في ثنايا الكتابات المسيحية ذات الخلفية الكاثوليكية؛ بل أمكن للباحث أن يرصد انتقالها للمصادر التاريخية اليهودية في القرن الخامس عشر الميلادي؛ من ذلك ما أكدّ عليه الرابي عوباديا دي بورتينورو Obadia de Bortinoro (1440 - 1530م) إبان حديثه عن زيارته للقاهرة؛ حيث أشار إلى وصول تجار من الهند وبلاد الحبشة وبلاد القس يوحنا لبيع سلعهم من التوابل والأحجار الكريمة واللآلئ في أسواق القاهرة المملوكية. ومن الواضح أن ذلك الانتقال كان طبيعياً في ظل الوحدة الثقافية التي كانت عليها الدول الأوروبية في حوض البحر المتوسط في العصر الوسيط.

علّ أية حال ظلّت أسطورة بلاد القديس يوحنا حية ومتواترة خلال كتابات الرحالة، ورواد ما عرف باسم حركة الكشوف الجغرافية الأوروبية، التي أسهمت في تكريس الاستعمار الغربي لبلدان أفريقيا وآسيا، فظهرت في يوميات البرتغالي فاسكو دا غاما Vasco da Gama (1469 - 1524م) أول المسافرين الغربيين إلى الهند بحراً عبر الدوران حول إفريقيا، واجتياز رأس الرجاء الصالح، قبل عودته لبلاده عام 1499م.

قاد فاسكو دا غاما أسطولاً بحرياً من أجل الوصول إلى توابل الهند، وأيضاً من أجل إحياء الفكرة القديمة، والتحاليف مع الكاهن يوحنا ضد جيرانه المسلمين. غير أن دا غاما كان قد حصل على معلومات سابقة بفضل تقرير الرحالة البرتغالي بيدرو كوفيلهام Pedro Covilham (1460 - 1526م)، الذي زار الهند وشرق أفريقيا، وقابل ملك الحبشة إسكندر الثاني Eskander II (1474 - 1494م)، وقدم تقريره للملك البرتغالي عام 1490م، وأشار فيه إلى وجود الأب يوحنا في الحبشة.

وفضلاً عن ذلك أشار فاسكو دا غاما أيضاً في مذكراته إلى أن بعض السكان العرب في موزامبيق أخبروه أيضاً أن بلاد القس يوحنا تقع بعيداً عن الساحل، ولا يمكن الوصول إليها سوى بالطريق البري عبر ركوب الجمال. ويمكن تتبع إصرار الذهنية الأوروبية على مواصلة اختلاق فكرة وجود بلاد الكاهن يوحنا عبر رصد استمرارية الفكرة في القرن الخامس عشر الميلادي، وربما انتقالها بشكل نهائي إلى شرق أفريقيا، ويتجلى ذلك عند متابعة قراءة مذكرات ألفونسو البوكيرك (1453 - 1515م)، القائد العسكري البرتغالي الذي هدفت حملاته الاستعمارية إلى السيطرة على العالم الإسلامي، واحتكار تجارة التوابل بين أوروبا والهند عبر حملاته المتكررة لجعل المحيط الهندي بحيرة برتغالية مع إغلاق مضيق باب المندب وهرمز أمام العثمانيين والقوى الإسلامية.

**أشار فاسكو دا غاما في مذكراته إلى أن بعض السكان العرب في موزامبيق أخبروه أيضاً أن بلاد القس يوحنا تقع بعيداً عن الساحل، ولا يمكن الوصول إليها سوى بالطريق البري عبر ركوب الجمال.**

غير أن ما يهمننا في مذكرات البوكيرك أننا نجد فيها صدئاً واسعاً للعديد من الحكايات عن وجود بلاد القس يوحنا بالحبشة أيضاً، ويتحدث عن حاكمها بوصفه «ملك الحبشة بريست» أو «بريستاوجواو». وهو ما يؤكد استمرارية الأسطورة من أجل الاتكاء عليها في بواكير حركة الاستعمار الأوروبي لأفريقيا وآسيا.

على أية حال استمر الغرب الأوروبي في استغلال صورة بلاد الكاهن يوحنا المحاطة بأعدائها المسلمين والوثنيين حتى تقارير بعثات الجزويت التبشيرية (1555 - 1632م)، لتختفي بعدها الأسطورة من كتب التاريخ، لتنتقل فيما بعد إلى فضاء الرواية الأوروبية في العصر الحديث عند رايدر هاغارد (1856 - 1925م) وبوشان (1875 - 1940م) ثم إلى أمبرتو ايكو (1932 - 2016م) في روايته الشهيرة باودولينو، التي تدور أحداثها في القسطنطينية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين.



### رسالة القس يوحنا للإمبراطور البيزنطي مانويل كومنين 1165م:

من القس يوحنا، بفضل قدرة الربّ وقوة سيدنا يسوع المسيح ملك الملوك وسيد الأسياد، إلى صديقه مانويل، إمبراطور القسطنطينية، خالص التحيات، متمنياً له موفور الصحة، ودوام التمتع بالتأييد الإلهي. لقد بلغ جلالتنا مقدار الاهتمام الكبير الذي تكتّونه لنا، وأن درجة سمونا العالية قد بلغتكم.

وفضلاً عن ذلك فقد استمعنا من رسولنا إلى رغبتكم في أن ترسلوا لنا بعض الهدايا القيمة من أجل إشباع رغباتنا، سوف نتسلمها مع الامتنان، وبالمقابل فإن رسولي سوف يحمل إليكم بعض الهدايا من جانبي.

والآن لدي رغبة أن تكون قد لمست الإيمان الحقيقي، كما أن جميع الأشياء تخلص الولاء لسيدنا يسوع المسيح. وبينما نعرف أننا بشر فانون، وإذا كان الناس ينظرون إليك كربّ؛ فإننا نعرف أنك فان، وتخضع للضعف والعجز البشري.

إذا ما كانت لديكم الرغبة في زيارة مملكة جلالتنا فإننا سوف نحتمي بكم، ونضعكم في أعلى وأسمى المراتب في قصرنا؛ لأنكم الأكثر قابلية للاشتراك بشكلٍ فاعلٍ في كل ما يعود إلينا ويتعلّق بنا، وإذا ما رغبت في العودة إلى بلادك سوف تعود محملاً بالثروات. وإذا ما أردت التحقق من مكونات قوتنا العظمى فما عليك سوى أن تصدّق دون تردد أنني الأب يوحنا، الذي يحكم بسمو متعال، الفائق في الفضيلة، أمتلك الغنى والقوة الموجودة تحت السماء، الذي يدفع له الجزية سبعون ملكاً، أنا المسيحي المتحمّس والمتعصب لديني، الحامي للمسيحيين في إمبراطوريتي، الداعم لهم ببرّي وإحساني.

لقد صممت على زيارة القبر المقدس للربّ على رأس جيش كبير، من أجل هزيمة وإذلال ومعاقة أعداء الصليب (المسلمين)، ولأجل رفعة اسم المسيح المقدس.

يتدفق العسل واللبن من كل مكان في بلادنا، ولا يوجد بها نقيق الضفادع المزعج، أو العقارب السامة، ولا الثعابين التي تزحف في الأحراش، كما لا توجد أية زواحف سامة تستطيع استخدام قوتها القاتلة هناك. وفي أحد الأقاليم الوثنية يتدفق نهر يُدعى الإندوس Indus، الذي ينبع من الجنة Paradise، ويمتد متعرجاً عبر قنوات متنوعة في جميع أراضي الإقليم الذي يوجد به الزمرد، والياقوت الأزرق، والعقيق الأحمر، والياقوت، والعقيق اليماني، والأحجار الكريمة الخضراء، فضلاً عن العديد من الأحجار الكريمة غالية الثمن.

**رسالة القس يوحنا  
للإمبراطور البيزنطي  
مانويل كومنين 1165م:  
من القس يوحنا، بفضل  
قدرة الرب وقوة سيدنا  
يسوع المسيح ملك  
الملوك وسيد الأسياد،  
إلى صديقه مانويل،  
إمبراطور القسطنطينية،  
خالص التحيات.**

وما بين البحر الرملي والجبال توجد أحجار كريمة في السهول، تستخدم في الأغراض الطبية، من أجل علاج المسيحيين المعرضين للإصابة بالأمراض.

كما توجد محارة (نتوء) يشبه الكهف (مقعر) على بعد أربع بوصات في عمق المياه، تم الحفاظ عليه بواسطة عجوزين مبدلين ومقدسین. وهي تسأل القادمين إليها عما إذا كانوا مسيحيين، أو أنهم يرغبون في ذلك، فإذا ما أبدوا الرغبة في ذلك يتم شفاء أجسادهم،

وإذا جاءت ردودهم مرضية يقومون بطرح ملابسهم جانباً، قبل أن يتوجهوا ناحية المحارة (النتوء)، وهكذا فإذا كان إيمانهم مخلصاً فإن المياه تبدأ في الزيادة لتغطي رؤوسهم. يحدث ذلك لثلاث مرات قبل أن تعود المياه لمستواها العادي. وهكذا فإن كل شخص يدخل إليها يقوم بمغادرتها وهو متعافٍ من أي مرض ألمَّ به.

كما توجد في بلادنا كميات ضخمة من الذهب والفضة والأحجار الكريمة، وكذلك حيوانات من جميع الأنواع والأعداد، نؤمن أنه لا يوجد مثلها تحت السماء، كما لا يوجد لدينا فقراء، ونقوم بالترحيب واستقبال جميع



الغرباء والرحالة والمسافرين، ولا يوجد مكان للصوم وقاطعي الطرق والزناة في بلادنا.

عندما نتوجه لميدان القتال نحمل أمامنا 14 صليباً ذهبياً مرصعاً بالجواهر بدلاً من الرايات والأعلام، ويتبع كل صليب عشرة آلاف فارس مسلح ومائة ألف من المشاة، فضلاً عن المسؤولين عن العربات والأمتعة والمؤمن.

كما لا يجد التملق والمداهنة طريقاً إلينا؛ إذ لا يوجد خلاف بيننا، كما أن شعبنا يتصف بوفرة ثرائه. أما الخيول الموجودة لدينا فهي قليلة العدد وضامرة، ومع ذلك فإننا نعتقد بأن لا أحد يضارعنا في وفرة الثروات الموجودة، وفي أعداد الناس.

وعندما نخرج في الأوقات العادية فوق سهوات الجياد يكون أمام جلالتنا صليب خشبي غير مزين بالذهب أو الجواهر، وذلك حتى نستدعي في أذهاننا حبُّ وعشق سيدنا يسوع المسيح. وكذلك تكون أمامه فائزة ذهبية مليئة بالرمال لتذكّرنا بأن جسدنا سيعود حتماً إلى مادته الأولى؛ إلى الأرض. بالإضافة أيضاً إلى فائزة فضية مليئة بالذهب؛ بحيث يدرك الجميع أنني سيد الأسياد. إن عظمتنا وفخامتنا تزخر بجميع الثروات، وتفوق تلك الموجودة بالهند.

يتصف القصر الذي أسكن به بالفخامة والرفعة، وهو على نمط ذلك الذي شيده القديس توما للملك غوندوفورو Gundoforo، ويمثله في وظائفه المتعددة وضخامته: الأَشْقُف، الأعمدة، كما كانت العتبات من خشب أكثر ندرة. كان سقف القصر مصنوعاً من خشب الأبنوس؛ خشية أن يتمّ تدميره عبر الحريق، أو أية وسيلة أخرى. وفي الأطراف أعلى الجمالونات توجد تفتاحتان ذهبيتان في كل منهما قطعان من العقيق الأحمر، بحيث يسطع الذهب نهاراً، بينما يتألق العقيق ليلاً. كما أن بوابات القصر الواسعة من الجرز العقيقي، ومرصعة بقرون الثعابين. وهكذا فلا أحد من الأشرار يمكنه الدخول إلى القصر. وكانت البوابات الأخرى من خشب الأبنوس، بينما

صنعت الشبابيك من البلور، وصنعت الطاولات التي تتناول عليها الحاشية طعامها من الذهب، بينما كانت قاعدتها من خشب الأبنوس. وفي مواجهة القصر تقع المحكمة التي نحكم منها بشكل اعتيادي لملاحظة المقاتلين. وكان رصيفها من العقيق اليماني؛ لأن قوة الأحجار الكريمة ربما تسهم في زيادة شجاعة المقاتلين.

لا تستخدم الأضواء ليلاً في القصر المذكور سوى عبر استخدام زيت البلسم، كما أن الحجرة التي أقوم بالراحة بها مرصعة بالذهب والأحجار الكريمة بشكل رائع.

عندما نتوجه لميدان القتال نحمل أماننا 14 صليباً ذهبياً مرصعاً بالجواهر بدلاً من الرايات والأعلام، ويتبع كل صليب عشرة آلاف فارس مسلح ومائة ألف من المشاة، فضلاً عن المسؤولين عن العربات والأمتعة والمؤن.

يجلس إلى طاولتي ثلاثون ألف رجل، بالإضافة إلى الزوار العاديين الذين أستقبلهم يومياً بترحاب، ويشترك الجميع في الحصول على هباتي من الخيول والنفقات الأخرى. كما أن الطاولة مصنوعة من الزمرد الثمين، وجرى تقويتها عبر أربعة أعمدة. وبفضل قوة وفضيلة الأحجار الكريمة لا يجلس أي شخص إلى طاولتي وهو ثمل.

ويقوم بالتناوب شهرياً على خدمتنا سبعة ملوك واثنتان وستون دوقاً ومائتان وخمسة وستون كونتاً ومركيزاً، وإلى جوار هؤلاء الذين تم إرسالهم في سفارات مختلفة ضمن اهتمامنا.

ويجلس اثنا عشر أسقفاً إلى يمين الطاولة لتناول الطعام بشكل يومي، كما يجلس عشرون قساً إلى اليسار. ويحضر معنا بطريرك كنيسة القديس توما، ومطران سمرقند، وأسقف سوسا Susa، ويحضر الجميع حيث يتجلى مجدنا في قصرنا.

وإذا ما سألت ثانية كيف منحنا الخالق السمو والمجد الأعلى على جميع البشر، مع أنه لم يمنحنا منزلة أعلى وأسمى من لقب القس. فلا تبدي



الدهشة من ذلك؛ فلدينا العديد في الحاشية من رجال الدين الذين حازوا ألقاباً ووظائف رفيعة في الكنيسة، وهم أكثر أهمية منّا في الخدمة المقدسة. بالنسبة لموظفينا الكبار فهم البطريرك والملك، أما الساقى فهو بمثابة بطريرك وملك، كما أن حاجبنا قسّ وملك. وكان الأرشمندريت بمثابة القس الرئيس أو المسؤول عن الخيل، وبمثابة ملك ومقدّم دير.

إن رفعتنا وسمونا لا يبدو منزعجاً لأن يميّز نفسه؛ فعبر أوامره يتم اختيار المحكمة. وإذا ما تمّ اختيارنا لنُدعى باسم ورتبة أقل؛ فإن ذلك ينبع من التواضع.

غاية الأمر أنه إذا ما تمكّنت من عدّ نجوم السماء، وحبّات رمل البحار، عندها فقط ربما تكون قد نجحت في عد وإحصاءٍ مدى قوتنا وثروتنا ومساحة بلادنا.